

## المحاضرة الخامسة / د. مؤيد ابراهيم محمد

### الدولة العباسية في مواجهة التسلط البويهي

في البدء لابد لنا من الاشارة الى أن العلاقة بين الخلافة العباسية والأمراء البويهيون، كانت سيئة؛ بسبب سلطات الأمراء البويهيين التي كانت واسعة جدا، وانهم لم يكتفوا بتلك السلطات بل عملوا على سلب امتيازات الخليفة ومشاركة في اختصاصاته، وقد اوضحنا- سابقاً كيف تعامل معز الدولة أحمد بن بويه مع الخليفة العباسي المستكفي بالله وأهانة إهانة كبيرة، واقتيد الى معز الدولة البويهي واعتقل فيها ثم نهبت دار الخلافة! بعد هذه الحادثة نصب معز الدولة البويهي، أبا القاسم الفضل بن المعز خليفة، ولقب بـ: المطيع لله سنة 334هـ/946م، ولم يكن الخليفة المستكفي بالله هو الوحيد من بين الخلفاء العباسيين الذي تعرضوا للأعتداء في هذا العصر، بل استمر هذا المسلسل بالظهور بين الحين والآخر، ففي سنة 381هـ/991م إعتدى البويهيون على الخليفة الطائع لله، وسبب ذلك يعود الى قلة الأموال لدى الأمير البويهي؛ لذلك كثر شغب الجند فقبض على وزيره أبي نصر سابور بن أردشير (وزير ابن بويه في عهد شرف الدولة بن عضد الدولة؛ تولى سابور هذا سنة 416هـ/1025م)، لكن الأمر لم ينته ولم يُحسم.

كان أبو الحسن بن المعلم قد تغلب على بهاء الدولة البويهي وكانت له العلمة والرأي المؤثر علياً وصاحب القرار في حكم مملكته، فاقترح على الامير البويهي القبض على الطائع واطمعة في أمواله وذخائره، وهوّن عليه الأمر وسهّله، فتقدم أصحاب الأمير البويهي، وجذبوا الخليفة بحمائل سيفه من سريرة ولقوة بكساء، وحملوه الى بعض السفن وتم خلعة من الخلافة. هكذا ساءت حال الخلافة، وأصبح الخليفة لعبة بيد البويهيين ينصبونه ويعزلونه متى شاؤوا، يلحقون به الأذى والأعتداء، وتحويل الخليفة العباسي الى أشبه ما يكون بالموظف، يخصص له الامير البويهي راتباً، وكان الأمراء البويهيون يتصرفون وفق مشيئتهم في تخصيص تلك الرواتب، وكان للخليفة العباسي وزير وللأمر البويهي كاتب، لكن هذا الأمر انعكس في

العهد البويهي، اذ تلقب الحكام البويهيون بلقب: (أمير)، وانهم استخلفوا وظيفه أمير الأمراء، وتلقبوا بألقاب مختلفة، فقد اعطى عضد الدولة البويهي لقب: (تاج الملة والدين)، وفي سنة 381هـ منح الخليفة القادر بالله الأمير البويهي بهاء الدولة لقب: (غيث الأمر)، وفي سنة 429هـ ازدادت ألقاب جلال الدولة بلقب: (شاهنشاه الأعظم) أي: ملك الملوك، وخطب له بذلك، وفي سنة 430هـ / 1038م منح جلال الدولة لقب: (الملك الوزير). وهكذا ازدادت سلطات وصلاحيات الأمير البويهي في المساجد رمزا لسيادة الخليفة، لكن عضد الدولة البويهي أمر سنة 369هـ / 979م أن يذكر مع اسم الخليفة الطائع في خطبة الجمعة، ولما اختلف عضد الدولة مع الخليفة الطائع، أمر بحذف اسم الخليفة من الخطبة لمدة شهرين. وشارك البويهيون الخليفة العباسي نقش اسمهم على النقود، بل عملوا على حذف لقب: (أمير المؤمنين) من الخليفة العباسي وذكره اسمة فقط، في حين ذكر الأمير البويهي مع لقبة وكنية، من ذلك ذكر لقب الأمير عضد الدولة ب: (تاج الملة والدين)، -كما مرّ بنا- وكنية (أبو شجاع). كانت الطبول تضرب على أبواب دار الخلافة في أوقات الصلاة ثم صارت الطبول تضرب على أبواب الأمير عضد الدولة ثلاث مرات في اليوم. لم يبق للخليفة العباسي إلا تعيين القضاة وأصحاب الصلاة والخطبة والقائمين على المساجد، وهذا هو الذي حفظ للخليفة نفوذة الديني، فصار يؤكد ويسعي الى تثبيت مركزه به، وقد ساعده ذلك على استرجاع سلطته في دور صنعهم، وهذا ما جعل البويهيين يحسبون للخلافة حسابها حتى دور قوتهم، وبالفعل انتعشت الخلافة العباسية في أواخر حكم البويهيين، ففي عهد القادر بالله زاد وقار الدولة العباسية ونما رونقها وأخذت تزداد قوة. كان الأمراء البويهيون يترصّون الخلفاء العباسيين، ويظهرون لهم الطاعة ارضاء للجمهور وطمعا في أن يمنح الخليفة لهم الألقاب التي كان يهواها أمراء بني بوية، ولما شعر البويهيون بنفوذ الخليفة الديني في الاوساط الشعبية فانهم اصبحوا يتظاهرون في المناسبات لاطهار الشعور الكريم والطاعة الكلية لمقام الخليفة، ففي عقد حفلة العهد لى عضد الدولة البويهي سنة 369هـ / 979م؛ جلس الخليفة الطائع على السرير وحوله مائة بالسيوف والزنية وفي يديه المصحف الشريف، وعلى كتفه البردة وبيدة

القضيب وهو متقلد سيف النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وضربت ستارة بعثها عضد الدولة وسال أن تكون حجابا للطائع حتى لاتقع عليه عين أحد من الجند قبله.

ولعل ما ذكرناه يمثل صورة جليّة للتناقص الكبير في معاملة الخلفاء العباسيين، فالأمراء البويهيون يتظاهرون بالولاء والخضوع للخليفة العباسي أمام الناس وفي المناسبات؛ ليكسبوا رضا الجمهور العام، ولكي يقال أن الامير البويهي يحترم الخليفة، وبذلك يبعدوا عنهم سخط العامة ومعارضتهم، بينما كانوا في خصوصياتهم يثقلون على الخليفة العباسي في مطالبهم، ويسعون الى تجريد الخلافة من مظاهرها وخصائصها وعوامل قوتها.

والخلاصة ما تقدم من العلاقة بني بوية بالخلافة العباسية، أو السلطة الحقيقية انتقلت من يد الخلفاء الى بني بوية، ومن الطبيعي ان يتوقع الناس يومئذ من بني بوية ان يصلحوا أمورهم. ومما لا شك فيه ان بعض الأمراء البويهيين قاموا باصلاحات في العراق، ابرزها إصلاح نظام الري وتحسين شؤون الزراعة، لاسيما في عهد معز الدولة وعضد الدولة، وكانت لتلك الاصلاحات آثار طيبة في تقدم الزراعة ورفاهية السكان، لكن الدولة كانت بشكل عام بحاجة الى الأموال، وخزانتها كانت لا تسد ولا تكفي نفقات العمران الزراعي والتنظيم العسكري، فقد كان الجيش في حاجة كبيرة الى الأموال. ويبدو ان البويهيين لم يكونوا من ذوي الخبرة في التنظيم الاقتصادي؛ لذلك اتبعوا سياسة زراعية عادت على البلاد بخسائر فادحة، كما أدت الى خراب أرض السواد (وسط وجنوب العراق)، فقد منح معز الدولة البويهي الاقطاعات لجنده دون حساب، كما اجتهد عضد الدولة وصار يمنح لجند إقطاعات من أراضي الوقف، وتحكم هؤلاء الجند في أراضيهم الزراعية التي اقطعت اليهم، فضلا عن تحكّمهم بزراعتها (الفلاحين) كما شاؤوا، ولم يدفع اولئك الجند شيئا يذكر لخزانة الدولة. ان الاقطاعات التي أقطعتها معز الدولة البويهي للقادة وكبار الموظفين والجند، إنما أراد بذلك ربطهم، خاصة الجند بالأرض؛ لاسترضائهم وتقوية جانبهم، لكنه من جهة اخرى ادى الى فعل معاكس، يتمثل في

حرص اولئك القادة على جمع الموالم وحيازة الأرباح وعدم الالتزام في دفع مقدار الضمان بذرائع شتى، اي مقدار المبلغ المفروض دفعة لخزانة الدولة، كانت من ابرز نتائج ذلك فشل محاولات معز الدولة في اصلاح نظام الري والزراعة، التي أدت الى إرهاب الخزانة بالاموال، لتضاؤل مواردها، كما كان معز الدولة كثير النفقة على جنده، مما أدى الى إفلاس الخزانة، وبذلك تعذر عليه ان يدخر ذخيرة لنوائبه، أي يجمع أموالا يحتاط بها لمواجهة المشاكل وألزامات الطارئة والمفاجئة، كما لم يخزن ما يفضل من أموال خراج الارضي الزراعية، هكذا كانت نفقاته تزداد وموارده تنقص؛ لذلك حصل العجز في خزانة الدولة وأموالها بمرور الايام .

ويمكننا وصف الأمراء الذين حكموا العراق بعد معز الدولة البويهبي، باستثناء عضد الدولة، بانهم كانوا بعيدين كل البعد عن الفهم السياسي والحزم الإداري، مما عجل في إرباك أمور الدولة والأسرع في سقوطها، فقد أشغل (بختيار) نفسه باللهو واللعب، وكان لا ينظر في دخل ولا خرج، وأما كلف وزيره بتمشية الامور من حيث لا يعنيه ولا يمنع أحدا من جنده شيئا، فاذا وقفت أموره قبض على وزيره واستبدله، فلا يلبث الأمر ان يعود الى أسوأ ما كان من الإبطاء والتأخر والتردد.

وقد اساء بعض المسؤولين البويهيين التصرفات، مما أدى الى إرباك الحالة الاقتصادية وقلق حياة الناس التجارية والمعيشية حتى توقفت الاسواق واختلت وسائل كسب الناس ومعيشيهم، ومما زاد الوضع سوءاً كثرة المنازعات التي قامت بين الأمراء البويهيين، وبالطبع له تأثيره الكبير في حياة الناس المعيشية.

لقد ارتكب البويهيون خطأً كبيراً يتمثل في إكثارهم للعناصر الاجنبية التركية في جيشهم، فكان ضعف إدارة الأمراء سببا من ظهور مطامع الطامعين من مماليكهم الأتراك، فضلا عن بث الشقاق بين الناس والخراب والفساد في البلاد، وقد ظهر الخلاف والنزاع بين الأتراك والديالمة، كما دب التناقس بين الفريقين للحصول على الامتيازات والمخصصات، ولجأ البويهيون الى اتباع سياسة خطيرة، في محاولة في تفضيل فريق على فريق، أو تقريب عنصر على العنصر الآخر.

ان هذه السياسة التي اتبعها البويهيون والتي كانوا يتوخون من

تطبيقاتها، عدم افساح المجال للتوفيق والتقارب بين الفريقين ضدهم، وعادت بنتائج خطيرة وجسيمة، تتمثل فيما يأتي:

1. أضعاف الجيش البويهي بشكل عام.
2. احدثت انقساماً خطيراً في صفوف الجيش البويهي.
3. ان الديالمة والاتراك فقدوا الثقة بالأمير البويهي. ولم تعد لتلك الثقة وذلك الاحترام مكانا في نفوسهم.

أصبحت إزالة النزاع القائم بين الديالمة والاتراك غير ممكنة، وقد حاول بختيار سنة 360هـ / 970م، القيام بمثل هذه المحاولة، لكنه فشل في مسعاه، وفي سنة 363هـ / 973م أفلست خزانة الدولة العامة، فحاول الامير البويهي بختيار القيام بحركة لكنها في الحقيقة كانت غير موفقة، فقد حاول وضع يده في إقطاع سبكتكين قائد الاتراك، اي يصادر اراضيه الزراعية وممتلكاته، وكان ردّ فعل الاتراك ان ثاروا في بغداد واستولوا على المدينة واخرجوا بختيار منها، حدثت في بغداد اضطرابات عامة شديدة، فقد نزل الاتراك في بيوت الديلم وتبعوا اموالهم وأخدوها، وثارَت العامة من أهل السنة ينصرون سبكتكين؛ لأنه كان يتسنن فخلع عليهم وجعل منهم العرفاء والقادة، فثاروا على الشعية وحاربوهم وسفكت الدماء وأحرقت الكرخ حريقاً ثاني 0 بعد الحريق الاول الذي حدث سنة (362هـ/972م) وظهرت السنة عليهم، واستنجد بختيار بركن الدولة وعضد الدولة، فسار عضد الدولة الى بغداد واعاد النظام والهدوء ليها.

لقد أدت تلك الفرقة بين الناس لأسباب مذهبية وعنصرية الى سوء الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وظهرت حركات معارضة في ظل تلك الاوضاع، أبرزها حركات العيارين والشطار.